رحلة إلى الشهيد عمر المختار

استعرضنا في الحلقة السابقة التراث الفكري للاستاذ محمد أسد رحمه الله وقد ابتدأنا بكتابة الطريق إلى مكة. وبعد استعراض سريع للكتاب المذكور نقلنا منه رواية الحوادث المباشرة التي سبقت اعتناق المؤلف للإسلام. وفي هذه الحلقة سننقل فقرات من رواية المؤلف لرحلته إلى ليبيا سنة ١٩٣١ حيث قابل عمر المختار قبل استشهاده بأشهر قليلة. وقد اخترنا هذه المواقف لأنها تذكرنا بتلك الحقبة من التاريخ التي ربما نكون قد نسيناها بأسرع مما يجب لأنها تذكرنا بالموقف المتكرر للغرب الأوروبي في مواجهة خصمه عندما يكون أعزلا. إن ضمائر الأوروبيين لم تمنعهم يوماً من (التدمير الشامل) لخصمهم الأعزل وهذا ما يسمونه اليوم بالشرعية الدولية والنظام العالمي الجديد. وأخيراً فإنها تذكرنا بما لا يجب أن تنساه أمتنا وهو أن للمؤمن عندما تشير الحسابات المادية إلى أنه قد لا ينتصر في معركته مع القوة الغاشمة التي تريد أن تسلبه شخصيته وعزته ورسالته، إن له موقفاً آخر ليس هو موقف استجداء الاستسلام الذليل بل موقف المقاومة الصابرة حتى النهاية فأما حياة عزيزة أو موت كريم. ورب عيش أخف منه الحمام. وكما عودنا محمد أسد فقد جمع في روايته لرحلته إلى برقة بين النفس المتتابع للمغامرة الشيقة وبين التحليل الموضوعي الدقيق.

وعن الطريقة السنوسية يقول محمد أسد، (لقد كان العالم الجزائري العظيم محمد بن علي السنوسي هو الذي خطرت له في النصف الأول من القرن التاسع عشر فكرة طريقة إسلامية يمكن أن تعبّد الطريق إلى إقامة دولة إسلامية بالمعنى الصحيح. وبعد سنوات من التجوال والدرس في كثير من الأقطار العربية أسس محمد بن علي زاويته الأولى في جبل أبو قبيس في مكة. وسريعاً ما اكتسب اتباعاً وأنصاراً كثرين من بدو الحجاز. إلا أنه لم يبق في مكة بل عاد

إلى شمال أفريقيا ليستقر آخر الأمر في جغبوب، وهي واحة في الصحراء بين برقة ومصر. ومنها انتشرت رسالته كالبرق في جميع أنحاء ليبيا وتعدتها إلى أماكن قصية أخرى. وعندما مات في سنة ١٨٥٩ كان السنوسيون يسيطرون على دولة واسعة تمتد من شواطىء البحر الأبيض المتوسط إلى أفريقيا الاستوائية وإلى بلاد الطوارق في صحراء الجزائر. إن لفظ الدولة لا تصف بالضبط هذا الابداع الفذ ذلك أن إمام السنوسية لم يهدف مطلقاً إلى إقامة حكم شخصي لنفسه أو لأولاده وأحفاده من بعده، بل إن ما أراده كان أن يعد أساساً نظامياً لبعث الإسلام بعثاً أدبياً اجتماعياً سياسياً. فمن الزوايا الكثيرة التي انتشرت في جميع انحاء أفريقيا الشمالية حمل السنوسيون رسالتهم إلى أقصى القبائل وأحدثوا في عقود قليلة تبدلاً كاد يكون معجزاً بين العرب والبربر سواء بسواء فزالت الفوضى القديمة بين القبائل وأصبح مقاتلو الصحراء الذين كانوا فيما مضى متمردين متحلين بروح تعاونية لم تعرف بينهم من قبل. وفي الزوايا تلقى أودلاهم الثقافة لا في تعاليم الإسلام فحسب بل في كثير من الصناعات والفنون العلمية التي كان البدو الرحل ينظرون إليها سابقاً نظرة ازدراء واباء. لقد حملوا على أن يحفروا آباراً أكثر وأفضل في مناطق ظلت جرداء طوال قرون، وأخذت المزارع الناجمة بإرشاد السنوسي تظلل الصحراء. وبالاختصار فإن نفوذ الطريقة السنوسية كان دافعاً قوياً إلى المدنية والتقدم في حين أن تمسكها بسيرة أهل السلف الصالح رفع المقاييس الأدبية في المجتمع الجديد إلى أعلى كثيراً. ولكن فترة السلم هذه ما لبثت أن اضطربت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر عندما شرعت فرنسا في تقدمها جنوباً من الجزائر إلى أفريقيا الاستوائية وفي احتلالها خطوة خطوة. فدفاعاً عن الحرية أجبر ابن المؤسس وخليفته محمد المهدي على امتشاق السيف، ولم يتمكن بعد ذلك من أن يضعه أبداً. وعندما مات محمد المهدي سنة ١٩٠٢ خلفه ابن اخته سيد أحمد في قيادة الطريقة. وعندما غزا الإيطاليون طرابلس الغرب وبرقة سنة ١٩١١ وجد نفسه يحارب على جبهتين فأكرهه هذا الضغط الجديد الأكثر مباشرة على أن يحول انتباهه الرئيسي إلى الشمال. فإلى جانب الأتراك أولاً ثم وحده بعد أن ترك هؤلاء ليبيا حارب السيد أحمد ومجاهدوه السنوسيون ضد الغزاة بكثير من النجاح لم يستطع الإيطاليون ازاءه رغم تفوقهم

في العدد والعدة أن يحتفظوا سوى بعدد قليل من الثغور.

وفي سنة ١٩١٥ دخلت تركيا الحرب العظمى إلى جانب ألمانيا وطلب السلطان العثماني إلى إمام السنوسية أن يساعد الأتراك بمهاجمة البريطانيين في مصر. ومنذ ذلك الحين أجبر السيد أحمد على أن يحارب على ثلاث جبهات وعندما شن البريطانيون هجوماً في الصحراء الغربية قطعوا الطريق الوحيد الذي كانت المؤن والذخائر تتدفق منه على المجاهدين ولم تستطع داخلية برقة أن تطعم وحدها شعباً منهمكاً بنضال فيه حياته وموته. وفي سنة ١٩١٧ سافر السيد أحمد إلى اسطنبول بهدف الحصول على مساعدات وقبل أن يبحر عهد بقيادة الطريقة في برقة إلى ابن عمه محمد ادريس (الذي أصبح ملك ليبيا ١٩٥١) وحيث أن محمد ادريس كان ذا استعداد سلبي أكثر من السيد أحمد، فقد حاول حالاً أن يصالح البريطانيين والإيطاليين فوافق البريطانيون وضغطوا على الإيطاليين كي يحذوا حذوهم فاعترفت الحكومة الإيطالية رسمياً بمحمد ادريس أميراً للسنوسيين فاستطاع أن يحتفظ بشبه استقلال متزعزع في داخلية برقة حتى عام ١٩٢٢ إلا أنه عندما اتضح أن الإيطاليين لم يكونوا ينوون في الحقيقة أن يتقيدوا باتفاقاتهم غادر محمد ادريس البلاد محتجاً إلى مصر في أوائل سنة ١٩٢٣ بعد أن عهد بقيادة السنوسيين إلى أحد أتباع الطريقة المخلصين القدماء: عمر المختار، وقد حدث ما كان متوقعاً فقد خرق الإيطاليون اتفاقاتهم بعد ذلك مباشرة واستؤنفت الحرب في برقة).

ويتحدث محمد أسد عن عمر المختار فيقول: (عمر المختار أسد برقة ذاك الذي لم تمنعه سنوه السبعون من القتال حتى آخر رمق في سبيل حرية بلاده، لقد كان مدة عشر سنوات متطاولة كالحة روح مقاومة قومه في صراع يائس ضد الجيوش الإيطالية التي كانت عشرة أضعاف جيشه ومزودة بأحدث الأسلحة والدبابات المصفحة والطائرات والمدافع بينما لم يكن لدى عمر المختار ورجاله أنصاف الجائعين شيء سوى البنادق وبعض الخيول يشنون بها حرب عصابات يائسة في بلد انقلب إلى سجن ضخم كبير).

وعن مهمته في ليبيا يقول محمد أسد: (استدعاني السيد أحمد السنوسي

وكان يقيم في المدينة المنورة وشرح لي صعوبة الأوضاع في برقة وسألني قائلاً: هل تذهب يا محمد إلى برقة بالنيابة عنا فتقف على ما يمكن صنعه للمجاهدين لعلك تستطيع أن ترى الأمور بأجلى مما يراها بنو قومي؟ وتناول السيد أحمد من على أحد الرفوف نسخة من القرآن الكريم وبعد أن وضعها على ركبتيه أمسك بيدي اليمنى بين يديه ووضعها على الكتاب وقال: (أقسم يا محمد بالله الذي يعلم ما في القلوب على أنك ستبقى أميناً للمجاهدين).

ويصف محمد أسد رحلته في المدينة المنورة عبر البحر الأحمر ومصر إلى برقة وأخيراً لقاءه مع عمر المختار: (.. وما لبث عمر أن جاء على جواد صغير. ساعده أحد رجاله على النزول، ورأيت أنه كان يمشي بصعوبة وقد عرفت بعدئذٍ أنه كان قد جرح إبان إحدى المناوشات قبل ذلك بعشرة أيام تقريباً. وعلى ضوء القمر المشرق استطعت الآن أن أراه بوضوح، كان رجلاً معتدل القامة قوي البنية ذا لحية قصيرة بيضاء كالثلج تحيط بوجهه الكئيب ذي الخطوط العميقة وكانت عيناه عميقتين ومن الغضون المحيطة بهما كان باستطاعة المرء أن يعرف أنهما كانتا ضاحكتين برَّاقتين في غير هذه الظروف إلا أنهما لم يكن فيهما الآن شيء غير الظلمة والألم والشجاعة. واقتربت منه لأحييه وشعرت بالقوة التي ضغطت بها يده على يدي. مرحباً بك يا بني، قال ذلك وأخذ يجيل عينيه فيّ متفحصاً. لقد كانت عيني رجل كان الخطر خبزه اليومي. وفرش أحد رجاله حراماً على الأرض.. فجلس سيدي عمر عليه متثاقلاً وعلى ضوء النار الخافت قرأ سيدي عمر الكتاب الذي حملنيه السيد أحمد إليه ثم التفت إليّ مبتسماً وقال، لقد اطراك السيد أحمد في كتابه، أنت على استعداد لمساعدتنا، ولكنني لا أعلم من أين يمكن أن تأتينا النجدة إلا من الله العلي الكريم. إننا حقاً على وشك أن نبلغ نهاية أجلنا، فقلت: وإذا أمكن تدبر الحصول على المؤن والذخائر من واحة كفرة أفلا يمكن صد الإيطاليين؟ ولم أر في حياتي ابتسامة تدل على ذلك القدر من المرارة واليأس كتلك التي رافقت جواب سيدي عمر: لقد خسرنا كفرة فالإيطاليون قد احتلوها منذ أسبوعين وقربني سيدي عمر إليه بلطف وكرر قوله إنك تستطيع أن ترى يا بني أننا قد اقتربنا فعلاً من نهاية أجلنا. ثم أضاف كأنما يجيب على السؤال الذي كانت تنطق به عيناي: (إننا نقاتل لأن علينا أن نقاتل

في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت نحن وليس لنا أن نختار غير ذلك. إنّا لله وإنا إليه راجعون) لقد كان سيدي عمر يعرف أنه لم يكن ينتظر غير الموت، كان هناك جد عميق ولكن دونما كبت في صوت سيدي عمر عندما بحث معي النتيجة المحتومة لصراعه الطويل في سبيل الحرية. كان يعرف أنه لم يكن ينتظره إلا الموت. إنه لم يكن يخشى الموت، ولم يسع إليه، ولكنه كذلك لم يحاول أن يتجنبه وإنني لعلى ثقة من أنه حتى لو عرف أي نوع من الموت كان ينتظره لما حاول أن يتجنبه فقد كان يؤمن إيماناً عميقاً بأن كل إنسان يحمل مصيره بين جنبيه حيثما ذهب ومهما فعل. لم يكن باستطاعة أحد أن ينقذ سيدي عمر. إنه لم يرد أن ينقذ. لقد فضل أن يموت إذا لم يستطع أن ينتصر. لقد عرفت ذلك عندما فارقته).

ويصف محمد أسد الأيام الأخيرة لعمر المختار: (كان سيدي عمر ونفر من رجاله متوغلين في بعض الأراضي التي كانت في قبضة الإيطاليين. وبطريقة ما عرف الإيطاليون بوجوده وسدوا الوادي من الجانبين بعدد كبير من الرجال، ولم يكن هناك أمل بالهرب ولكن سيدي عمر والمجاهدين دافعوا عن أنفسهم إلى أن لم يبق منهم سواه واثنان آخران وأخيراً سقط جواده من تحته قتيلاً برصاصة بندقية فوقع على الأرض ورجله تحت الجواد الميت بحيث لم يستطع النهوض إلا أن الأسد العجوز استمر في إطلاق النار من بندقيته إلى أن أصابته رصاصة في إحدى يديه وعندئذٍ قبضوا عليه وحملوه مكبلاً إلى سلوق حيث أخذ إلى الجنرال غرازياني الذي سأله، ماذا تقول لو أن الحكومة الإيطالية رأفة كبرى منها بك سمحت لك أن تعيش. هل أنت على استعداد لأن تعد بأنك ستمضي ما تبقى لك من أيام في سلام؟ ولكن سيدي عمر أجاب لن أتوقف عن قتالك وقومك حتى تغادروا بلادي أو أفارق حياتي وأقسم لك بالله أنه لو لم تكن يداي مغلولتين في هذه اللحظة بالذات إذن لقاتلتك بيدي العزلاء. أنا الشيخ المحطم العجوز. وعندها ضحك غرازياني وأعطى الأمر بأن يشنق سيدي عمر في سوق سلوق. وهكذا كان. فقد جمع الإيطاليون آلافاً كثيرة من رجال المسلمين ونسائهم من المعسكرات التي كانوا مسجونين فيها وأجبروهم بالقوة على أن

يشاهدوا شنق قائدهم، وبعد مئة معركة فقد جاء الموت الذي طالما انتظره عمر المختار).

إلى هنا تنتهي هذه الفقرات التي اقتطفناها من كتاب الطريق إلى مكة لمحمد أسد. وقد نفذ حكم الإعدام شنقاً بالسيد المجاهد عمر المختار في الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء ٤ جمادى الأولى ١٣٥٠ هجرية الموافق ١٦ سبتمبر ١٩٣١ ميلادية ولسانه وقلبه وحاله يردد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وقد رأيت أن أنقل هنا للقارىء أبياتاً من قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي في رثاء عمر المختار وهي من أصدق مراثيه وأروعها:

ركزوا رفاتك في الرمال لواءا ... يستنهض الوادي صباح مساءا
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم ... يوحي إلى جيل الغد البغضاءا
جرح يصيح على المدى وضحية ... تتلمس الحرية الحمراءا
يا أيها السيف المجرد في الفلا ... يكسو السيوف على الزمان مضاءا
خيرت فاخترت المبيت على الطوى ... لم تبن جاهاً أو تلم ثراءا
إفريقيا مهد الأسود ولحدها ... ضجت عليك أراجلاً ونساءا
والمسلمون على اختلاف ديارهم ... لا يملكون مع المصاب عزاءا

نشرت في جريدة اللواء ١٩٩٢/٤/٨